الفلسفة وتبصر الوجود في فكر مرلوبونتي

عبيد الله سليمة، (جامعة تلمسان)

ملخص

إن فينومينولوجيا الإدراك الحسي هي إمتداد لفينومينولوجيا هوسرل، لها توجه حسي بحيث أصبحت تتم العودة إلى الأشياء عينها حسيا كما هي في العالم من خلال الجسد الخاص والذي له القدرة على الكشف الماهيات الحقيقية عن طريق الرؤية والتي تجعلنا نتبصر الوجود.

Résumé: La phénoménologie de la perception est une extension de la phénoménologie de Husserl, puise son devenir sensuel donc les choses sont de retour à la même sensorielle comme il est dans le monde à travers votre corps et qui a la capacité de détecter les véritables essences par la vision et la présence qui nous rendent.

يفتتح مرلوبونتي عمله المرئي واللامرئي بقوله«إن العالم هو مانراه ومع ذلك يتوجب علينا تعلم رؤيته وذلك يعني بادئ ذي بدء أن نجعل المعرفة تضاهي الرؤية التي علينا أن نجتازها وأن نقول ما النحن وما معنى أن نرى وأن نتبصر بالتالي كما لو أننا لانعرف شيئا»[1]،دعوة مباشرة لفتح أفق فلسفة جديدة،متحمسة لتأسيس طريق يجعل من الإنسان قادرا على فهمه لموضوعاته في عمقها في صمتها،وفي تعبيرها،فقط من خلال الرؤية الصحيحة الفعلية للأشياء المحيطة به في العالم،إن العالم موجود قبل أن نكون معرفة عنه فهو ليس من وصف الوعي كما يقول هوسرل الذي وصفت فلسفته بالمثالية بل هو موجود مسبقا تقيم فيه الذات المتجسدة التي تكون لها تجربة الحضور فيه،فالإنسان لايشكل العالم الذي يصبح موجودا بالنسبة له،بل هو فقط يتجه نحوه ليدعمه ويكشف حقيقة ظواهره ليس بالعودة إلى الوعي لأن الإنسان يحيا في العالم ولا يعرف ذاته إلا فيه«العالم ليس الذي أفكره بل الذي أعيشه،إنني منفتح على العالم أتصل به بلاشك ولكني لا أمتلكه،فهو غير قابل للفناء»[2] إننا فقط نقوم بكشفه وإكتشافه بأهم حاسة نمتلكها ألا وهي الرؤية،لذا فالسكن في العالم وتفحصه يتم من خلال الرؤية الحقيقية والأصيلة التي تبرز حقائق الأشياء من كذبها وأوهامها،هذه الرؤية تزعزع العالم وتوضحه كما هو في ذاته، في حقيقته الأولية ،وهو مايسمح لنا بأن نتعرف ونتعلم الكيفية الصحيحة

[1]- موريس مرلوبونتي،المرئي واللامرئي،ترجمة عبد العزيز العيادي،المنظمة العربية للترجمة،الطبعة الأولى،بيروت،يوليو،2008،ص54.

[2]- موريس مرلوبونتي،ظواهرية الإدراك،ترجمة فؤاد شاهين،معهد الإنماء العربي،ص14

التي يجب أن نقيم عليها وجودنا الحقيقي في العالم من كل جوانبه،وهنا نلمس الطابع الوجودي لفينومينولوجيا مرلوبونتي فهو واحد من الفلاسفة الفينومينولوجين الوجودين الذين يعتمدون أساسا على معالجة قضية الوجود الإنساني في العالم[3]،إن فينومينولوجيته من نوع جديد فهي تبتعد عن هوسرل وتقترب من هيدغر،تخالف الفينومينولوجيا المثالية لهوسرل وتتقترب من الفينومينولوجيا الوجودية لهيدغر والذي لايعتبر هو الأخر الفلسفة والفينومينولوجيا حقائق إنطلاقا من الكيفية التي تتبدى بها الأشياء في الشعور الإنساني،بل أن فكره قائم على زعزعة إستقرار الإنسان وإزاحته من مركزه وتفكيك مايتوهم أنه من صنع إرادته وتاريخه وتدبير عقله وإبداع ثقافته بتبديد جميع تلك الهالات التي أضفتها عليه النزعة الذاتية الإنسانية،إن فكره فكر لايريد أن يرى في الإنسان سوى مخلوق تابع للوجود ملقى به في العالم،لقد استقى أفكاره من هوسرل غير أنه قام بنقل الوعي المتعالي وموضعته في الوجودية ببحث مشروع الوجود الإنساني في العالم،إنه يؤسس لفينومينولوجيا معينة هي فينومينولوجيا متعينة تقوم في أساسها على الإدراك الحسي للعالم[4]،ببحث وكشف الماهيات والحقائق بطريقة حسية من خلال التواجد الجسدي بالعالم بقصدية وجودية من منطلق أن فعل الإدراك الحسي يخضع لقانون القصدية الأساسي داخل الفينومينولوجيا،غير أن مفهوم القصدية مع مرلوبونتي سوف يتجه نحو الوجود من مبدأ تناول الإنسان بإعتباره موجودا في العالم وليس بإعتباره مؤسسا لموضوعات التفكير إنطلاقا من أفعاله التفكيرية كما كان يؤسس هوسرل قصديته،فالإدراك بالإضافة إلى أنه يمنحنا صورة عن الموضوع المدرك من لون وصفات فإنه يوصلنا إلى إدراك معنا خاصا وإلى كيفية تكونه،فقولنا الشاطئ أحمر مثلا تعني شيئا معينا يمثل بالنسبة إلي،وليس فقط على أنه حاضر أمامي وفقط تؤلف أجزاؤه مجتمعة كلا يرتبط به كل جزء بل هو يمثل جزءا أو موضوعا قصديا من طرفي[5]،لذا فإذا كان هوسرل يقيم فينومينولوجيته على مبدأ العودة إلى الأشياء عينها والتي تتم عن طريق وصف موضوعات العالم الخارجي بعيدا عن تأكيدات العلوم السيكولوجية وغيرها لينكر يقين العلوم ويجعل من الذات الإنسانية محددة للموضوعات وذلك بتعاليها عن العالم التجريبي و السيكولوجي بإعتباره أنا متعاليا فيغلق أمام ذاته كل ماهو وارد إليها من قبل العلوم،فإن الأنا أو الذات يجب أن تكون له تجربة في العالم وحضور دائم فيه،لأن العملية التي تكشف لنا حقيقة الظواهر كما هي في العالم ليست عودتنا إلى الإنسان الداخلي لأنه لايعرف ذاته إلا في العالم،في الوجود،وهنا يتضح لنا نقله للفينومينولوجيا إلى مجاله كي يكسبها صبغة وجودية،فهو أراد أن يجعل منها بحثا في البدايات والأصول ولكن ليس بالعودة إلى الوعي بل إلى الأشياء والموضوعات كما ترتبط في العالم بشكل عفوي قبل أي تنظير على مستوى الرؤية التي يحوزها الجسد الخاص والتي تتحقق بعملية الإدراك الحسي التي تكشف ماهيات الأشياء كما هي في الواقع،فماهي الرؤية وكيف تكون حقيقية وأصيلة حتى تقدم لنا العالم وتجعلنا نتبصر الوجود؟

---

[3]- عبد الرزاق الداوي،موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر،دار الطليعة بيروت،الطبعة الأولى،ديسمبر،1992،ص44.

[4] - Bernard sichère,merleau-ponty ou le corps de la philosophie, éditions Grasset,fasquelle,1982,p57.

[5]- موريس مرلوبونتي،ظواهرية الإدراك،المصدر السابق،ص27

إذا قلنا الرؤية la vision مع مرلوبونتي فإنها رؤية من نوع خاص،إنها رؤية الجسد الخاص،إننا نرى بعيون الجسد على حد تعبيراته،ومفهومه عن الرؤية يتخذ معناه من تركيبة الجسد الخاصle corps propre ذاته فهو يرفض الثنائية الكلاسيكية للروح في مقابل الجسد على أن الجسد ليس كيانا تابعا للروح تعمل على توجيهيه والتأثير فيه بل أن كلا من الجسد والروح يمثلان وحدة غير منفصلة،وحدة يتجسد فيها الأنا في الواقع الحسي في إدراكه للعالم،يتصف الجسد الخاص على أنه جسد يرىla vision يتحرك la motricité لايتناسل la sexualité وتقوم وظائفه هذه في الإرتباط فيما بينها أو مع العالم الخارجي بطريقة متضمنة في نسيج واحد[6]،إنها لا تستطيع أن تكون متمايزة ذلك لأنها ستكون متحدة ومتصلة،فإذا أخذنا مثلا الرؤية وعلاقتها بالحركة فإن الرؤية ضرورية بالنسبة للحركة فهي تسمح لنا بإمتلاك معرفة موضوع ما ورؤية جوانبه أو أوجهه الأخرى في حين أن الحركة تمكننا من الإحاطة والدوران بهذا الموضوع لتتعرف على أوجهه:على أنه وفي كل مرة يكون في إمكاني أن أرى شيئا فإني أستطيع الدوران حوله[7]،فوظيفة الحركة تتصل بالرؤية،إنني أعلم أن للأشياء وجوها كثيرة لأنني أستطيع أن أدور حولها فالرؤية وحدها لا تسمح لي إذا برؤية الأشياء:لأن رؤيتها متوقفة على جسمي الذي يتحرك ويدور حولها لإستكشافها،وبهذا المعنى فأنا أعي العالم بواسطة جسمي[8]

أول وظيفة يحددها مرلوبونتي للجسد هي الرؤية،وهو لايصفها كعملية فيزيولوجية«يمنع أن تتصور الرؤية بوصفها عملية للفكر ترسم أمام العقل لوحة أو تمثلا للعالم،عالم المحايثة والمثالية،إن الرائي إذ يغوص في المرئي بواسطة جسمه»[9]،ذلك أننا نرى من خلال أجسادنا مادام الجسد الخاص يمثل وحدة للروح بالجسد،إننا نلاحظ أشياء توجد على خلاف ماتظهر لنا في أفق ما،فلما أرى مصباحا مثلا فهو لايدور حولي على أن له جوانب أخرى،في حين أن نظري يستهدف باقي الأوجه والتي كانت للحظة مخفية وذلك عن طريق دوراني حول هذا المصباح فأنا أقوم بعملية الرؤية داخل أفق فأرى هذا الأفق متضمنا دون أن أرى غيره الأخر والسبب يعود في ذلك أيضا لأن المصباح يوجد كمعطى ضمن وسط معين قد ينظر من خلاله أو ينظر له من منظورات أخرى أيضا،إن أي موضوع بعامة سوف يكون مكتملا وشبه شفاف،إنه مخترق من كل الجوانب عن طريق لانهائية فعلية من الرؤى والنظرات التي تتقاطع في أعماقها ولا تترك شيئا مخفيا، و لتوضيح مفهومه عن الرؤية وفلسفته القائمة إنطلاقا منها يسترجع مرلوبونتي التحليل الهوسرلي للرؤية على أنها رؤية محضة تؤسس لإدراك مقيد ومعناه تحصيل للظاهرة المحضة بوضع كل من الأنا والعالم

---

[6] - Philippe huneman,estelle kulich,introduction à la phénoménologie,armand colin,paris,1997,p100-101.

[7] - Ibib,p104

[8]- جمال مفرج،كوجيتو الجسد،دراسات في فلسفة مرلوبونتي،منشورات الإختلاف،الطبعة الأولى،2003،ص36-37.

9- موريس مرلوبونتي،العين والعقل،ترجمة حبيب الشاروني،منشأة المعارف بالإسكندرية،د ط،17-18.

والزمان موضع سؤال فيكون الإدراك حينها مقيدا بحدود الرؤية المحضة[10]،إدراكا يقوم على أساس من رؤية يقدمها الأنا المتعالي،غير أن مرلوبونتي سيعمل على تصميمها وتطويرها فسوف نجده يعمل على توجيهها نحو إضاءة دور الجسد وهو ما سيسوغ لنا أن نأخذ وعينا الجسدي من وسط العالم،الجسد هو محور العالم وعنصره الرئيسي،فأنا أعرف أن للموضوع أوجه كثيرة،ذلك لأنني أستطيع القيام بالدوران حوله،وبهذا المعنى أعي العالم عن طريق واسطة جسدي،لا الوعي ولا الفكر هما وحدهما من يسمحان بمعرفة وعي من أكون أنا الموجود مع ديكارت،ولا على أن العالم والذات متقابلان كما هو مع هوسرل ولكن عن طريق الجسد الذي يكون واعيا بأن هناك عالما وعلى أنه منظم من أجلي والسبب في ذلك هو أن الوجود في العالم يعني دائما أن الكائن يقيم ويعمل في وسط،إنه يوجد ضمن وضعية من المنظورات التي تربطه مع جسده والتجربة البصرية التي تقدمها الرؤية تعبر عن إحالة العالم إلى الجسد بما أن خواص الجسد تدرجه وتدمجه في العالم.وبهذا فإنه بإمكاننا أن نستظهر العالم كما هو قبل العودة إلى الذات وذلك من خلال معايشتنا له بإدراكه عن طريق الرؤية،عن طريق الحس،عن طريق جسدنا الخاص بكل مايحمله من وظائف ليكون الإدراك وحده طريقنا إلى الحقيقة،إن الحركة إلى جانب الرؤية كمظهر آخر من مظاهر إدراك الجسد الخاص تجعلنا نساهم في فعل المعرفة حسيا لأن هناك تظافرا قويا مستمرا بين وظائف حواسنا الجسدية،فبين الرؤية والحركة هناك تشابكا،فأنا لا أرى إلا ما أنظر إليه بحركة للعين فأرى ما أتحرك نحوه وأتحرك نحو ما أرى وبمقتضى هذه الأفعال الحسية المرتكزة على الرؤية فإني أدرك الأشياء،أدرك العالم من حولي وأتبصر وجودي بإيمان إدراكي أنتقل فيه بإنفتاح مباشر على الوجود وهو ماراح يؤكده مرلوبونتي في أخر عمله اللامنته في المرئي واللامرئي دون بقاء الذات في علاقة إدراك للموضوعات كما جاء في أولى أعماله في فينومينولوجيا الإدراك،فهو رفض أن تتحدد وظيفة الفلسفة في البحث عن الماهيات كما فعل هوسرل ولاحتى إلتحامها بالعالم والكشف عن حقائقه المعيشة كما كان قد فعل هو في فينومينولوجيا الإدراك لأن كل هذه العمليات تبقينا بعيدين عن البحث في الوجود بحيث أنها تنظر فقط إلى تلك الصلة بين الذات المدركة والموضوع المدرك على أنها صلة حكم تكونها الذات عن الموضوع مستخدمة في ذلك عناصر التحليل والوضوح والبساطة كشروط ينتج وفقها الموضوع دون الإنفتاح على الوجود[11]،فالوجود الجسدي سيصبح ممكنا أيضا كإنفتاح على الوجود كما نجده عند هيدغر،الذي يصبح حاضرا في تفكير مرلوبونتي حينما عمل على توضيح أن علاقتنا الأولى بالعالم قائمة على فكرة لقاء وإتصال أنطولوجي يحققه لنا مفهومه عن اللحم la chair بدلا الجسد،وإذا كان الجسد الخاص يحقق معارفه للعالم من خلال الإدراك المتجسد في الرؤية فإن مفهومه عن اللحم يحقق إنفتاحه على الوجود من خلال إيمان إدراكي [12] la foi percptive والذي يمثل تجربة تحمل معنى أصيل وإفتتاحي لحضور الأشياء ذاتها،تلك الأشياء الموجودة قبلا من عمليات الإدراك التي أوجهها إليها،فهي تمثل ذلك الوجود الخام الأولي الموجود مسبقا قبل أن أتوجه إليه بعملية إدراكية من قبلي،ومن هنا راح يرفض المطابقة التي أقامتها الفلسفة دائما بين الذات وموضوعها الذي تفكر فيه على أن للذات

---

[10]- إدموند هوسرل،فكرة الفينومينولوجيا،ترجمة فتحي إنقزو،المنظمة العربية للترجمة،الطبعة الأولى ،بيروت،2007،ص81

[11]- Françoise dastur ,chair et langage, essai sur merleou-ponty,encre marine,2001,p113.

[12] - bernard sichére,op.cit,p72.

وحدها فقط مهمة التفكير في العالم وإكتشاف ماهيته الأصيلة عن طريق العودة إلى معطياته المباشرة فيما يخص مسألة بلوغنا الحقيقية وثانيا بالتأكيد على أن الجسد وبإعتباره رائيا ومرئيا كما جاء في فينومينولوجيا الإدراك والذي سمح للأشياء المرئية بأن تمر إليه تماما كما يمر هو إلى داخل هذه الأشياء وإكتشاف ماهو أصيل فيها هو بالأمر الأساسي فهذا الأصيل سوف لن يكون الأسبق الذي تكون عليه الأشياء ولن يكون ماهية معيشة لأننا سوف لن نجد له مايقابله في الواقع لذلك فإن عملية الإدراك سوف تنتقل لتكون إنفتاحا كما دل على ذلك المرئي واللامرئي.

أنا أدرك موضوعات عالمي من خلال حركة جسمي وبفضلها،أدرك مثلا أن للمكعب ستة أوجه متساوية،لكن ذلك ليس راجع إلى إستدلال عقلي كما تدعي النظرية العقلانية وإنما راجع إلى قدرتنا على التفكير في أن أجسامنا ذاتها موضوعات متحركةفقدرتي على الدوران حول المكعب سوف تمنحني إدراكي إياه على أنه ذو ستة أوجه،وإذا كانت عملية الإدراك الحسي تستند إلى عمليات الجسد من رؤية وحركة فإن الأمر نفسه ينطبق أيضا على اللمس والسمع وغيرها من مظاهر الإدراك والتي تجعلنا نتواجد مباشرة أمام الأشياء في ذاتها كما هي مرئية مباشرة في العالم،إننا ندرك الموضوعات كما هي من خلال تواجدنا الجسدي في العالم فهو الشيء الوحيد الذي يمكنا من إدراك الأشياء كما هي في ذاتها في الواقع،في عالم الحس وليس داخل الوعي كما يقول هوسرل،فالعودة إلى الأشياء عينها في فينومينولوجيا الإدراك هي عودة للمعيش المحسوس،إلى الماهيات التي تكشف عنها الرؤية بملازمتها لها،فالجسد الخاص له حضور جسدي في العالم يقوم في أساسه على التلازم المستمر لهذا الجسد بموضوعات العالم:«الجسد الخاص ليس ذاتا عن طريق الشفافية مثل الفكر الذي لايفكر في شيء أيا كان دون أن يتمثله وأن يحوله إلى فكرة وإنما ذات بواسطة الإختلاط والنرجسية وملازمة من يرى لمن يراه،ومن يلمس لما يلمسه،ومن يحس للمحسوس،ذات إذا واقعة بين الأشياء لها وجه وظهر لها ماض ومستقبل»[13]،هو دائما في تواصل مع العالم والأشياء،فعن طريقه نصل إلى إدراك حقيقية الأشياء،إنه دائما في علاقته بالعالم المعيش،هو ليس جسد منعزل عن أناه الحاملة له كما جاء في الفلسفات الكلاسيكية،إنه ملازم لأناه الواعية في ذاته فهو وعي جسماني أو أنا متجسد،وهو ماجاءت به فينومينولوجيا الإدراك والتي تتلخص في الإدراك الحسي الممثل في الجسد كما هو في علاقته بالعالم المعيش،إنه كوجيتو الجسد كما يحب أن يسميه مرلوبونتي إنطلاقا من إعتباره أن الوعي ليس وجودا منفصل عن الوجود الجسدي،بل هو وعي ملتحم بالعالم وإذا كان هوسرل قد أوجد الحل لإشكالية تناقض التيارين المثالي والتجريبي عن طريق تجاوزهما بتطبيقه لعلاقة القصدية بين الذات والموضوع عل أن يكون الوعي متجها بإستمرار نحو مواضيعه الخارجية بقصدية منه،بقصدية الوعي،فإن مرلوبونتي يذهب إلى أبعد من ذلك على أن قصدية الجسد والمتمثلة في كوجيتو الجسد قادرة على أن تمنحنا معرفتنا بالعالم بطريقة أولية سابقة على التأمل[14]،بحيث يصبح كل وعي هو وعي إدراكي حسي،وكل وعي جسماني هو إدراك لموضوعات العالم،فيصبح العالم بمثابة المحيط الذي يتحرك ويدرك ويحيا فيه الوعي الجسماني،إنه يختص نفسه ويوقفها بهذا العالم بمهمة كشفه وإدراكه

---

[13]- موريس مرلبونتي،العين والعقل،المصدر السابق،ص18-19.

[14]- توفيق سعيد،الخبرة الجمالية،دراسة في فلسفة الجمال الظاهراتية،دار الثقافة للنشر والتوزيع،2002،ص202

فنحن دائما على إرتباط وصلة به ولسنا في علاقة تأسيس ولاهيمنة وتوجيه له ولا حتى علاقة تطبيق تحويلي له،إن صلتنا به تقوم على الرؤية،فهو يصبح يتحدد على أنه ماننظر إليه،ويتحدد النظر على أنه ماينبسط تحت أنظارنا من خلال الرؤية،فليس الفكر أو الوعي هو من يرى بل إن ذلك من فعل الجسد،إننا نرى من خلال الجسد وليس الوعي لأن الإنسان جسد واع وهذه هي حقيقة أننا نرى بعيون الجسد[15]،فتتحدد الرؤية على مستوى الجسد بما أنه جسد واع،فيمثل مجالا لتأسيس المعنى والتواصل مع العالم ونمطا من الإنتماء إليه وأداة للدلالة التي تجعله حاضرا فيه بحيث تصبح الأشياء والموضوعات الأخرى مجرد إضافات لهذا الجسد الخاص الذي يشير إلي من حيث هو مركز وجودي وقوة فعلي الإدراكي لهذا العالم وإرتباط ذاتي به فبجسدي أكون حاضرا إلى ذاتي وبجسدي تكون الأشياء حاضرة إلي أيضا فتكتسب معناها[16] .

يتمكن الجسد من تحقيق عملية الإدراك والمعرفة في كونه يرى ويدرك العالم المرئي مباشرة ودون أية تنظيرات ولاتجريدات،وهو في الوقت نفسه مرئي،فإذا كان يملك خاصية النظر إلى الأشياء كلها فهو يمكنه أيضا أن ينظر إلى نفسه،إنه يرى نفسه رائيا،ويلمس نفسه لامسا،فهو مرئي ومحسوس بالنسبة إلى نفسه،إنه جسد ذات لسبب ملازمته لما يراه وما يلمسه ومايحسه[17]،وتتم معرفته للعالم وإدراكه لمجرد أن يقوم بالرؤية أي حين يبدأ جسد مرئي في أن يرى موضوعا ويصبح لحظتها مرئيا لنفسه لذاته عن طريق الأشياء والموضوعات المرئية بحيث لايكون هناك إنقسام بين الحاس والمحسوس،لأن العلاقة بينه وبين والعالم قائمة في أن الجسد يفهم عن طريق وساطة العالم وأن العالم يفهم على أنه قائم عن طريق وجود جسدي[18]،بالإضافة إلى أن للجسد مهمة إدراك العالم فكذلك للعالم خاصية إبراز صوره أمام الجسد حتى يتمكن هذا الأخير من أن يجعلها مرئية،فليس هناك من إنفصال للموضوع المرئي في العالم عن مايوجهه،لأن الجسد يظهر هو الأخر في المرئي على أن هناك علاقة تلازم بين الرائي ومايراه،فالرؤية تحصل وتتحقق وسط الأشياء حين يبدأ الجسد في رؤية موضوعه وتنتهي حينما ينقطع الجسد عن التواجد بين الأشياء،ثم أن وجود الجسد كموجود مرئي بالنسبة للأشياء التي يقع عليها نظره هو الأمر الذي سوف يجعله يتوصل إلى إنتاج حقائق موضوعية لابمنظاره هو بل بمنظار يعود إلى الطريقة التي تتبدى بها الأشياء لهذا الجسد أي في أسلوب الذي يستطيع به أن يكشف الكيفية التي ترتبط بها الأشياء المرئية المحسوسة الواقعة تحت عملية الإدراك الحسي المباشر.

---

[15]- توفيق سعيد،الخبرة الجمالية،دراسة في فلسفة الجمال الظاهراتية،دار الثقافة للنشر والتوزيع،2002،ص202

[16] -- bernard sichére,op.cit,p69-70.

17-كمال بومنير،الطريق إلى الفلسفة،دراسات في مشروع مرلوبونتي الفلسفي،الدار العربية للعلوم ناشرون،منشورات الإختلاف،ط2009،1،ص150-15

[18]- bernard sichére,op.cit,p69